التثاقف من مسلوبية الاحتواء إلى معقولية التعارف

الحاج بن أحمنه دواق*

الملخص

تسعى هذه المقالة إلى بيان طبيعة الصلات الحضارية، وضرورتها التاريخية، والخلفية الحضارية المؤسسة لطبيعة العلاقات والمفسرة لها، والكشف عن طبيعة الوعي الغربي، الذي يبتّى الصراع القاصد إلى الاحتواء، رغبة في السيطرة والعمل على تعميم النموذج الغربي للحياة، وتنميط العالم بمنطق العولمة الكونية والثقافة الإنسانية الواحدة. وتهدف المقالة كذلك إلى تقديم طرح توحيدي بديل ينطلق من القيم الإلهية في عرضه لمفهوم التعارف الحضاري، وبناء الصلات على المعايير الأخلاقية وكرامة الإنسان، بعيداً عن العنف والعرقية، ويتحقق للحضارة الإنسانية من خلالها التوازن بعيداً عن التعصب والتطرف.

الكلمات المفتاحية: التثاقف، التعارف الحضاري، الحوار الحضاري، النموذج الحضاري الغربي، العولمة والعالمية، صراع الحضارات.

Abstract

Acculturation; from alienative assimilation to reasonable acquaintance

This article aspires at the understanding of the nature of civilizational relations, its historical necessity and the civilizational background that establishes such relations and explains them. It also attempts to uncover and challenge the position of Western consciousness that aims at assimilating the world, through forcing its culture life styles and values. The article provides and Tawhidi alternative based on the Divine Values, through presenting the concept of civilizational acquaintance that builds relations on tolerance morals and human dignity, away from violence, extremism and racism.

Keywords: Acculturation, Civilizational dialogue, Civilizational acquaintance, Western civilizational model, Globalization and universalism, Clash of civilization.

* أستاذ الكلام الإسلامي وفلسفته، بجامعة باتنة– الجزائر. البريد الإلكتروني: elhadj_1971@yahoo.fr

– تم تسلّم البحث بتاريخ ٢٠١٠/٦/٢٣م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١٠/١٠/٤م.

مقدمة:

كما هو دارج في أدبيات الفكر، تتأسس حياة الإنسان على منظومات قيمية ومعرفية ومنهجية، تشكّل ترجمة واعية مقصودة لتساؤلات يفرضها الواقع على وعي الناس، فبعضهم أمام تحديات وإكراهات، تحفزهم إلى الإجابة عنها بوحي من تفاعلاتهم مع العناصر الرئيسة التي شكلت وجودهم التاريخي، بما مضى من مرجعيات عقدية، وإبداعات فكرية وفنية وقانونية. باختصار تفاعلهم مع جُمَاع ما يحمل وعيهم إزاء الحياة وتقلباتها. وهنا ينشأ فهم خاص، ويتولد سلوك متفرد، وانتظام حياتي يعكس رؤيتهم ويلخص تجاربهم، وهذا ما يمكننا نعته بالثقافة، التي قد تعني، فيما تعني، تفاعلات خلاقة مع الوجود العام، بتصميمات مستقاة من معطيات الواقع في شكليه؛ الحاضر واقعاً، والمأمول طرحاً بديلاً، وأفقاً مستقبلياً مراداً، ويتم ذلك كله بهداية متجاوزة تخطط للإنسان منطلقاته، وترسم له منعرجات والتواءات المسير، وتضبط فعله وحركته إلى نهايات تشدُّه وتستحثه على الخطو والحراك، الذي لا يخور ولا ينقطع، وتتمايز الأمم لما قررناه، بحسب نوع المنطلقات التي تتخذها لنفسها، تجاوباً مع النهايات والغايات التي تسعى لبلوغها.

إن المجتمعات الخالية من الأحوال المنتظمة لها، والقيم الهادية المسددة لمسيرتها، تكون عرضة لتداخل الموجِّهات وتضاربها، فينتهي بها الأمر إلى وضع يسوده الاختلاط والتضارب، والضعف والتراجع داخلياً، والاستسلام والتقليد خارجياً؛ فهي لا تملك النموذج الفريد مقارنة بما للآخر من الميزات، فيقال: إن أحدهما لا يملك الثقافة ولا مقوماتها، وتالياً يفتقر إلى مكونات الهُوية ومفرداتها، والمتفوق عليه يملي ذاته، ويتخارج بها بعيداً عن نطاق الخصوصية، بزعم الهيمنة مرة، وبدعوى نقل التفوق والتحضر للآخر الهمجي الرجعي تارة أخرى. فيتنمَّط وجود هذه المجتمعات في رؤيتين، وفهمين، ونظامين، وممارستين. وبين جهة ترى نفسها الأفضل، تستنسخ عالماً ينبغي أن يكون مشابها لها، على أقل تقدير في ظاهر الأمر. وأخرى مُتَلَمْلِمَة الكيان مُتَمَلْمِلَتُه (مهتزة متراوحة)، تعمل للبناء والتنمية، متصارعة مرة، ومهادنة أخرى، تناجز ليكون لها موضع قدم، فيسمح للمكرر المستنسخ، ويمنع المخالف المناوئ، أو المستقل المباين، فتستحيل أوضاع

الدنيا، إلى تنابذات وتجاذبات، بين مركز وهامش، وقوة ومجال، ومنتج ومستهلك، مهيمن ومتربَّص به، في ثنائية تتعالج، فتضحى دوامة يعسر الخروج منها، إلا في اتجاه رؤية وجودية، متأسسة على التنوع والاختلاف؛ مبدأً ومنطلقاً، وممارسة وعملاً، وتنظيماً وحُكْماً، ومساهمةً وإضافةً، وغايةً ونُشداناً.

ويمكن أن نقرر بادئ الأمر أن شكل العلاقات الإنسانية، أو التثاقف، في نطاق الطرح الأول هو المسلوبية والاغتراب عن الهوية والذات؛ تخارجاً ودمجاً وإكراهاً، وثانيهما يعمل ضمن مبررات التنوع والتعايش في أفق التعارف المعقول، أو معقولية التعارف.

أولاً: في حقيقة المثاقفة، وماهية التثاقف

يُطلق على العلاقات الثقافية مصطلح "المثاقفة"، و"التثاقف". وجوهر التمايز بينهما هو تمايز المصدر والفاعلية. أو الحالة وواضعها. فالمثاقفة سليلة الثقافة ومصدرها، في حين أنّ التثاقف هو الفاعلية الساعية إلى تجسيد الثقافة. ومصدر كليهما هو الثقافة، لذا من الضروري التعريج على المصطلحات الثلاثة باقتضاب.

١. الثقافة:

جاء في لسان العرب، في تصريفات كثيرة للفظة الثقافة، أنها مشتقة من "ثقف الشيء ثَقْفَاً وثِقافاً وثُقوفة: حذقه. ورجل ثَقْفٌ وثَقِفٌ وثَقُفٌ: حاذق فَهِمٌ...وثَقْفٌ: لقف...الثقافة: اللقافة...ثقفت الشيء: حذقته...وثقُف الرجل ثقافة؛ أي صار حاذقاً خفيفاً...غلام لقن ثقف؛ أي ذو فطنة وذكاء، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه...."[١] وقد نأينا عن الاستفاضة في التخريج اللغوي، وفيما أورده صاحب اللسان، نقلاً عن معهود العرب في استعمال الكلمة، في ملفوظها ومفهومها. ما فيه كفاية من الإشارة إلى دلالات الجذر واستخداماته المتنوعة والغنية. وأعجب ما في الاشتقاقات السالفة، تمحورها -في الغالب- حول ما يتصل بأنشطة الإنسان المعرفية والفنية

[١] ابن منظور، **لسان العرب**. بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٣م، ج٩، ص٢٢ وما بعدها.

والسلوكية، ما يفيد شمولية المعاني المتضمنة في مثويّات الكلمة في المستوى اللغوي، ناهيك بما يمتد إلى المعاني التي يتم استحضارها في السياقات الفكرية المختلفة.

وتعد الثقافة في اصطلاح مؤرخي الأفكار وفلاسفة الحضارة والتجمعات المدنية، نظريةً في المعرفة. وفي هذا خلط بينها وبين العلم؛ فالثقافة أوسع من العلم دلالة وأوفى تعبيراً، خاصة إذا أخذنا في الحسبان، بقاءها عند ذهاب مظاهر العلم وتفاصيله. ويقدِّم مالك بن نبي فهماً للثقافة يتسم بالعمق، إلى غاية تؤهله نظريةً للتغيير والتنمية. والمعنى الذي استحسنه مالك بن نبي ووظّفه، استخلصه من نظرية في الحياة متوازنة، تتخطى الرؤى الغربية؛ الليبرالية بما هي مؤسِّسة للمعنى الفردي للثقافة، والماركسية التي تُعنى بالوجه الجماعي للظاهرة ومعناها. إذن هي ليست نظرية في المعرفة فقط، بل هي فلسفة الإنسان، وفلسفة المجتمع، وفلسفة السلوك. ولشمولها تُعدّ مشروعاً للتربية والتصوّر العام للحياة؛ تصوراً وتمثلاً، وممارسةً وحركةً، فهي "...العلاقة المتبادلة، التي تحدد السلوك الاجتماعي لدى الفرد، بأسلوب الحياة في المجتمع، كما تحدد أسلوب الحياة بسلوك الفرد."[٢]

فالثقافة إطار يتلقى فيه الأفراد هُوياتهم، وطريقة تفكيرهم، ونمط معيشتهم، بالارتباط مع نسق القيم الاجتماعي، المنبثق بدوره من مصدرية تصورية متجاوزة، وبذلك يترابط وعي الناس إزاء الحياة، وإن تفاوت مستواهم الحياتي، ودرجاتهم العلمية؛ فمثلاً "...الخليفة المسلم، والراعي المسلم، يتصفان بسلوك واحد، لأن جذور شخصيتهما تغور في أرض واحدة، هي المجال الروحي للثقافة الإسلامية. والطبيب الإنجليزي والطبيب المسلم، يختلف سلوكهما، لأن جذورهما لا تغوص في أرض واحدة، على الرغم من أن تكوينهما تم في إطار منهجي واحد."[٣] وهنا تتبدّى لنا حقيقة مفصلية، هي أن الثقافة لا تتكرر، ولا تنتقل. فإذا غادرت أرضها ومنبتها، فمصيرها الموت والاندثار، باعتبار أصل التكون، وعوامل الصيرورة، وإلحاحات المآلات. وتتضح هذه المسألة، إذا نظرنا إلى الثقافة على أنها: "...الجو المشتمل على أشياء ظاهرة، مثل الأوزان والألحان والحركات، وعلى

[٢] ابن نبي، مالك. **مشكلة الثقافة**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، الجزائر: دار الفكر، ط٤، ١٩٨٧م، ص٣٢-٣٣.
[٣] المرجع السابق، ص٥٤.

أشياء باطنة كالأذواق والعادات والتقاليد، بمعنى أنها الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معين وسلوك معين، وسلوك الفرد فيه بطابع خاص، يختلف عن الطابع الذي نجده في مجتمع آخر."[٤]

فالخصوصية من أجلى سمات الثقافة وألصقها بمفهومها، خلافاً للعلم، الذي قد يتسم بشيء من العمومية والكُلّية، والاشتراك الإنساني العام فيه. ولن يفضي تحليلنا إلى نتيجة؛ إن نحن نظرنا إلى الثقافة سياقاً ذاتياً، تولّد عبر مكابدات متواصلة، مع البيئة الطبيعية والبشرية، فضلاً عن توفر المنظومات القيمية المتجاوزة عند بعض المجتمعات، ما يجعل التفرد، والتميز، والاستقلال، سمت الثقافة في معناها ومنباها. ولا مكان لزعم المقلدين بأن الثقافة ربيبة العلم وملازمته مطلقاً؛ إذ إنَّ نسبية الصلة لا تكون من جهة شروط ضمان نشأة العلم وتطوره، أما أن يؤخذ العلم بملحقاته المعنوية والرؤيوية، فهذا من الخطورة بمكان، وبالقدر المفضي إلى التقليد الأعمى المهلك. "...إن السلوك الاجتماعي للفرد خاضع لأشياء أعم من المعرفة، وأوثق صلة بالشخصية منها بجمع المعلومات، وهذه هي الثقافة التي تعني مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعورياً، العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه."[٥]

تشمل الثقافة في هذا المنظور بعدين أساسين يكّونان الحياة، هما؛ أن الثقافة محيط يؤثر في الفرد، وفي تكوين عوالمه المعرفية، والروحية، والسلوكية، والإنجازية، والخِبراتية؛ إذ تُعد الثقافة الصلة التي تنبع من الفرد تجاه مجتمعه، وتجاه الكون والحياة، والتاريخ، بصفة أشمل وأعمق. فالأفراد يتلقون من الطبيعة عناصر وجودية، تكوّنهم ابتداءً، وتحفظ استمرارهم؛ بيولوجياً وفيزيائياً كذلك، كما يأخذون من المجتمع لغتهم، وأنماط إدراكهم للحياة، وأشكال تفاعلهم معها. والعلاقات المتنوعة المشار إليها، ما هي سوى "علاقات ثقافية، أعني أنها خاضعة لأصول ثقافة معينة...حيث قلنا: إن الثقافة هي المحيط الذي

[٤] ابن نبي، مالك. **تأملات**، الجزائر: دار الفكر، ط٥، ١٩٩١م، ص١٤٧.
[٥] ابن نبي، مالك. **مشكلة الثقافة**، مرجع سابق، ص١٤٥-١٤٦.

يصوغ كيان الفرد، كما أنها مجموع من القواعد الأخلاقية والجمالية."[٦] وتدور العلاقات في إطار من الأخلاقية الّتي تنشد المعنى، في طبيعة الارتباطات، وتنشد العلاقة الجمالية في بُعدها الشكلاني؛ فالثقافة أخلاقية وجمالية، تعطي للحياة عمقها القيمي أخلاقياً، وظاهرها القيمي جمالياً.

فالثقافة قوة مؤسِّسة ومحرِّكة أولى للمجتمعات والحضارات، على الرغم مما للعوامل الأخرى من أثر. وانطلاقاً من المدرسة الحضارية التوحيدية إطاراً للتحليل، يتأكد هذا المنحى للثقافة والتنافس، بكونه وسيلة تواصل. ومن غير العدل تعميم الخصوصية، بدعوى الكونية، أو العولمة. وتأكيداً، فالثقافة "...بيئة مكونة من الألوان والأصوات، والأشكال والحركات والأشياء المأنوسة، والمناظر والصور، والأفكار المتفشية، في كل اتجاه...صورة خيالية...تمارس مفعولها على الراعي وعلى العالم بالسواء، وهي الوسط الذي يتشكل داخله الكيان النفسي للفرد، بالصورة نفسها التي يقيم بها تشكل كيانه العضوي داخل المجال الحيوي الذي ينتظمه."[٧]

التعريفات التي أوردناها، على اقتضابها، تحدد مفهوم الثقافة في صورة تعكس حضارة ما يتحرك في نطاقها الإنسان المتحضر، ويسلك وفقها، في جدلية فردية جماعية، لا تلغي الواحد لحساب الآخر والعكس، في انسجام تحدثه الدفعات الروحية المتتالية، المأخوذة من مرجعية الجماعة الإنسانية، حينما يؤذن فجر حضارة جديدة.

ويعرّف محمد عابد الجابري الثقافة بأنها: "ذلك المركَّب المتجانس من: الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلّعات التي تحتفظ لجماعة بشرية، تشكّل أمة أو ما في معناها، بهويتها الحضارية، في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء. وبعبارة أخرى: الثقافة هي المُعبِّر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم؛ في نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده، وما ينبغي أن يعمل وما لا ينبغي أن يأمل."[٨]

---

[٦] ابن بني، مالك. **ميلاد مجتمع**، ترجمة عبد الصبور شاهين، الجزائر: دار الفكر، ط٣، ١٩٨٦م، ص٣٢.

[٧] ابن بني، مالك. **القضايا الكبرى**، الجزائر: دار الفكر، ١٩٨٧م، ص٨٤.

[٨] الجابري، محمد عابد. "العولمة والهوية الثقافية"، المغرب: **مجلة فكر ونقد**، ع٦، شباط، ١٩٩٨، ص٥.

وتظهر أهمية طابع الخصوصية في تعريف الجابري، وهو ما يساعد في ضبط مفهوم التثاقف، وتعيين حدوده؛ رفعاً للإشكالات العالقة.

٢. المثاقفة والتثاقف:

ورد هذان المصطلحان عند صاحب اللسان، ولكن بحمولات نظرية متوافقة مع الأفق التاريخي للزمان الماضي. فالمثاقفة تعني اللعب بالسيف، وإجادة ذلك وإحسانه، والتثقيف يعني التسوية. ويظهر من الاشتقاق اللغوي للمصطلحين، المصدرية والفاعلية، مع ضرورة الإشارة إلى أهمية التفريق في الاستعمالين، بين منطلقات الحالة القارّة، والمُنْبِئة عن شكل صلات وعلاقات بين مجتمعات مختلفة من جهة، وتفعيل تلك العلاقة والإثمار منها من جهة أخرى؛ فليس كل من صوّر العلاقة أفاد من وجودها، فكثير من التوصيفات أظهرت العلاقات الثقافية بين المجتمعات الإنسانية، من جهة واحدة فقط، ما يجعل مفهوم المثاقفة لا يصلح للاستعمال نموذجاً لتفسير ظاهرة التنوعات الثقافية والصلات بينها وفهمها، في صورة مغايرة لمعنى التثاقف على وزن التفاعل، وما كان كذلك في لسان العرب وعرفهم في إطلاق الكلام؛ إذ عُدَّ تواصلاً بين طرفين أو أطراف كثيرة، والتشارك في نطاق الفعل أو مجموع الأفعال التي جمعتهم، بقصد أدائها، وهو الذي يحمل في جوانبه نوعاً من الحضور والاستقلال والغيرية. وداعي التواصل يعود إلى كون المجتمعات كثيرة ومتعددة، وليست متراصة في أبنية تاريخية واحدة، ولا متدابجة ذائبة، لا تكاد تستبين من ثناياها، الأصل والفرع، أو المركز والهامش، أو في أبلغ تقدير ذاتاً وأخرى.

ومن هنا تكون المثاقفة –توافقاً مع المفاعلة، بوضع أدنى إلى الغياب والضمور– حالةً ووضعيةً وأُفُقاً، من الصلات والعلاقات الثقافية بين أبناء المجتمع الواحد، وبينهم وبين المجتمعات الأخرى. وبتعبير أوفى؛ تكون المثاقفة بين الكيانات الثقافية والحضارية العديدة –باعتبار تباين الكيانات المشار إليها واختلافها، بقصد التعرُّف والفهم، من أجل الاقتراب المتبادل، تبعاً لمقصد كل جهة من العلاقة الأولى ومحركاتها– بمعنى التعرُّف بقصد التعارف. والفهم لإعادة الصياغة والتشكيل، أو الاقتراب للسيطرة والتعدي... وهذا ما

يجعل المثاقفة وضعية ساكنة تخلو من الحراك القائم على التغذية المتبادلة؛ أي الإفادة المزدوجة والواعية، وتتلاقى السير في اتجاه واحد؛ فهماً، وحكماً، وصلة.

ويغدو التحليل أكثر وضوحاً إذا عددنا المثاقفة جماع الظواهر التي تستبطن الصلات المتنوعة؛ سواء بين الأفراد، أو المجموعات الثقافية، التي تنتهي إلى تمايز الأنساق الثقافية، في إطار تفاعلها. فالمثاقفة؛ مضمون وشكل، ونظام عالمي كوني، تواصلي، يهدف إلى الوقوف على أرضية تمكّن من الاطلاع على ما للآخر من عناصر مكونة لذاته، ولشخصيته التاريخية، ليكون بالإمكان الدخول إلى عالمه، والولوج إلى حياته، بقصد الفهم، أو الهيمنة، أو التعرُّف. ومن الخطأ حصر مفهوم المثاقفة فقط في نطاق إيجابي، فقد يحمل معنىً سلبياً، على مستوى التصور، والحركة أيضاً.

ومصطلح المثاقفة يتّسع لكثير من الدلالات، منها: الاقتراب، والتميز، والتبادل الخطي؛ إذ يتحكم طرف مهيمن بآخر مهيمن عليه. ومن دلالاته أيضاً المبادلة الرجعية، بانتظام الفاعلية بين جهتين تنظران إلى عالم الوعي البشري، بوصفه جُزراً من الثقافات، تجمع بينها عوامل إنسانية عديدة، تحفز الالتقاء والتكتل في إطار تعاون، لا الوحدة، بغية القضاء على مشكلات التنمية الحضارية للبشرية، تقليلاً لعوامل الصدام والصراع.

ولا يَرِدَنَّ إلى الفهم، أن المثاقفة حالةٌ وعمليةٌ بسيطةٌ وسطحيةٌ وأفقية، وإنما هي تراكبٌ متدامج، تتدخل في التهيئة لها، وتفعيلها، والإثمار منها، قوىً ضخمةٌ، تبدأ من الحضارات، وتنتهي إلى الفرد ذاته، وكيفية تجاوبه مع الآخر تبعاً لنظرته إليه. ويعتمد هذا التدامج على تراكمات نفسية ومعرفية وسياسية واجتماعية متنوعة، مما يجعل السهولة في التعاطي معها، تسطيحاً للعلاقات، واستسهالاً للعملية التواصلية بين الثقافات والحضارات. ويفيد التغيير الثقافي أيضاً في تلك الظواهر التي تنشأ حين تدخل جماعات من الأفراد –الذين ينتمون إلى ثقافتين مختلفتين– في اتصال مباشر، جراء استعمار، أو رغبة في الحوار ونقل الخبرات، مما يترتب عليه حدوث تغييرات في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في إحدى الجماعتين أو فيهما معًا. "ومن هنا يمكننا القول أيضاً إن هناك جانبين في الحضارة والثقافة الإنسانية؛ أحدهما الجانب الإنساني العالمي، والجانب الآخر،

الجانب القومي، أما الفرق بينهما فهو أن الحضارة القومية حضارة وثقافة انشعابية، فيما تكون الحضارة العالمية حضارة انسيابية."[٩]

والتثاقف شكل من الفِعل العالمي، الناجم عن إدراك التميز، والاستقلال الحضاري، لكن مع الرغبة في التعرُّف على ما عند الآخر من خصوصيات، تحفظ استمراره، ولا تمنعه من تكوين تواصلات واعية، حذرة، تبغي تبادل الفضائل، والمساعدة على تخطي المشكلات.

٣. الاستلاب، والمسلوبية:

من المفاهيم الملازمة للصلات الثقافية أو التثاقف، الاستلابُ، ووجهها الثاني الاغتراب. وفي اللغة الفرنسية تستعمل لفظة "alienation" في المعنى الحقوقي والقديم: "بيع أو تنازل عن حق إلى شخص آخر. وهو مجازاً حال المنتسب لآخر...وبالمعنى العميق المنسلب عقليا...."[١٠] والمعنى أضحى أعمق استعمالاً في الأدبيات الألمانية (الهيجلية، والماركسية)، وظهر الطرح ابتداءً في الوجهة المعرفية والوجودية، ميتافزيقياً عند هيجل، لدى اهتمامه بتحليل تطور الوعي في التاريخ، واستعانته بكل المظاهر الفلسفية والفنية والدينية لإثبات المعنى؛ إذ "إن العالم الذي لهذا الروح يتحلل في عالم مضاعف، فأما الأول فهو عالم الحقيق أو عالم اغتراب الروح نفسه."[١١] لكن من اللازم الانتباه إلى المعاني الميتافزيقية لتناول هيجل معنى الاغتراب، ثم لتوظيفه للمفهوم نفسه في سياق تفصيله للصلة بين الإنسان والعالم من جهة، ثم بين الناس وبعضهم بعضاً، في طول التراتب الموجود بينهم، وهو المعروف بجدلية السيد والعبد. فالاغتراب حاصل في طبيعة العلاقة وأصل منشئها، فالمعاني السياسية والثقافية والتاريخية ظِلَّ لما سبق من تصورات عقدية ميتافزيقية أو دينية. و"يؤكد هيجل مسألتين مهمتين: خضوع الإنسان لشيطان

[٩] شريعتي، علي. **تاريخ الحضارة**، ترجمة: حسين نصري، بيروت: دار الأمير، ط١، ٢٠٠٦م، ص٤٢.

[١٠] أندريه، لالاند. **موسوعة لالاند الفلسفية**، ترجمة: خليل أحمد خليل، بيروت-باريس: دار عويدات، ط٢، ٢٠٠١م، ص٤٣-٤٤.

[١١] هيجل. **فنومينولوجيا الروح**، ترجمة: ناجي العونلي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٥١٧ وما بعدها.

العمل المجرد. والطابع الأعمى والفوضوي للمجتمع الذي تسوده علاقات التبادل...ذلك أن الميكنة –وهي الوسيلة نفسها التي كان ينبغي أن تحرر الإنسان من عناء العمل– هي ما تجعله عبداً لعمله، وكلما ازداد سيطرة على عمله، ازداد هو فقدانا لكل حول وقوة."[١٢] ويؤكد ماركس معنى المثاقفة في إطار تحليلي مختلف، لغاية أيديولوجية.

وتطور معنى المثاقفة للدلالة على المعاني الحضارية المفتوحة. بمعنى أن الكيانات المختلفة قد يعمل بعضها على طمس الآخر ومحوه، بقصد الامتداد فيه، وتحويله إلى عنصر ضمن سياق النوع الخاص، وتذويبه في بوتقة الهوية الكلية المزعومة، أو تدجينه، وتركه هائماً كيفما اتفق، دون التفات إلى خطورة ذلك على المستوى التاريخي للإنسانية جمعاء. وبتعبير أدق؛ فإن المجتمعات الغالبة قد تعمل على استقطاب المجتمعات المغلوبة، وإدخالها في دوامة الابتلاع لخصوصيات الآخرين، فينتهي بها الوضع، إلى الذهول عن الذات، والاستحالة إلى الآخر، وإن شكلياً، لكن بغير رجعة أو عودة إلى الأصل. ونذكر في هذا السياق، ما قرره ابن خلدون حينما رأى "أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب، في شعاره وزيه ونحلته، وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك؛ أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها، حصل اعتقاداً، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء أو لما تراه، والله أعلم."[١٣]

وأزعم أن أول محدد لمفهوم الاستلاب والاغتراب، هو ابن خلدون، –رغم أن النبي ﷺ أشار إلى معنى شامل في حديث تتبع سنن السابقين– وعني به: التقليد، الذي يحضر في ثناياه، الحضور والغياب، والوعي واللاوعي، وهي جدلية الاستلاب مفهومياً، فهو حضور حال التقليد، وغياب بتقمص الآخر وأخذ عوائده، وهو وعي بقصد إفنائه وإعمائه، ولا وعي؛ لأن من نتائج التلاقي تلاشي الآخر. وهناك جدلية في الصلة بين

[١٢] مركيوز، هربرت. **العقل والثورة، هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية**، ترجمة: فؤاد زكريا، القاهرة: الهيئة العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠م، ص١٠٦ وما بعدها.

[١٣] ابن خلدون، عبد الرحمن. **تاريخ ابن خلدون**، السعودية: بيت الأفكار الدولية،، د.ت، ص٧٧.

الاستلاب والاغتراب؛ فمن استُلب اغترب. "فالإنسان الذي استسلم للتقليد، في العادات والأذواق، وبصورة عامة في تقليد ما يكتظ به عالم أشياء شيده غيره، يصبح في المجال النظري مقلداً للأفكار التي صاغتها تجارب وخبرات غيره."[١٤] فمفهوم الاستلاب جذب الآخرين، إلى شَرْطيات الخصوصية، والعمل على التدريج والتدقيق، في طمس معالم هُوياتهم، ومحوها، واحتوائها، بابتلاعها بآليات أنتجتها الثقافة الخاصة، ثم إنتاجها وفق مقاييس ذاتية خاصة، تؤول مع الوقت إلى فسخ المستقل، وجعله تكراراً للمركز وتقليداً له.

وسعياً إلى التعميق في الطرح، نوضح مفهوم الاغتراب/ الاستلاب. "ففي الاستعمال العام يدل اللفظ، في المقام الأول، على الاغتراب النفسي، والانعزال عن الناس والانطواء على الذات، إلخ. وفي الفلسفة، يعني غربة الشيء عن جوهره، واكتسابه صورة مناقضة لطبيعته الأصلية، لما يجب أن يكون عليه."[١٥] وما يعنينا هو المعنى الفلسفي، الذي يفيد غياب الشيء أو الشخص عن فضائه الخاص، وتحوله إلى حال، غير ما كان عليه، فيفقد ذاته ويصير إلى غير ما عليه الآخر.

أما المسلوبية على وزن المفعولية، فهي نتاج الاستلاب الواعي، وهي حالة تُورِث اتِّبَاعاً، يأخذ بمجاميع الحياة وبأنظمتها، وفق طريقة الآخر وأسلوبه. وتختلف عن الاستلاب، في ضمور الحضور، وقلة الحساسية، واختفاء الوعي شبه التام، بسبب التراكم المورث للإِلْفِ، الذي ينتهي إلى استساغة الأمر، وعدم استهجانه، فيصير الوضع الناشئ مألوفاً، فتُنظّم الحياة وشؤونها على سمته، وكأنه العادي، وكل ما يزايل ذلك من قبيل الخطر المهدد. وإذا شئنا التعرف إلى الاستلاب والمسلوبيّة، سنجدهما على الشاكلة الآتية:

الاستلاب: وعي+ أدوات = نتيجة مقصودة

المسلوبية: نتيجة = لا وعي+ أدوات في الغالب للآخر.

---

[١٤] ابن نبي، مالك. **المسلم في عالم الاقتصاد**، الجزائر: دار الفكر، ١٩٨٧م، ص٨.

[١٥] يفريموفيا، نتاليا سلوم. وتوفيق. **معجم العلوم الاجتماعية**، موسكو: دار التقدم، ١٩٩٢م، ص٣٣٢.

٤. المعقولية:

أعني بالمعقولية، دائماً على وزن المفعولية، العملية التي يُصار إليها بأداءات مركبة، يتدخل فيها الوعي والاختيار والاستقلال. وهي: جُماع أساليب الإدراك والفهم التي تسيغ للواحد من بني الإنسان تعقُّل شيء ما، والاطلاع عليه، ومشاركته تصورياً، فيبلغ بذلك حالة من الوضوح والتميز، أمام الأدوات المشار إليها، فتغدو الفكرة والوعي تطابقاً. فإذا بحثت داخل الوعي عن الفكرة، وجدتها مستساغة مقبولة مدركة، أو على أقل تقدير مفهومة، وإن لم يُأخذ بها على سبيل القبول والاقتناع.

ما يراد هنا من مسمى المعقولية، ليس لازمة العقل من حيث ما هو، وإنما الاصطلاح الدارج، الذي يعني مجمل ملكات الوعي: العقلية أو الذوقية، أو الحسية، أو الوجدانية،.... فالإنسان يطل على عالم العيان والأذهان بتراتبياتها؛ الحسية، والعقلية، والخيالية، واللسانية، والمكتوبة،[١٦] بأساليب وطرق تتوافق تبعاً والموضوع المقصود.

وعندما ربطت بين التعارف والمعقولية، فأنا أعني بها أن تأكيد الفكرة، لا يحتاج إلى شكل واحد للعلاقة، من حيث إنشاؤها والذود عنها، والعمل على تنزيلها في نماذج تتوافق وتطورات العصور، وإنما هو بحاجة إلى استدلالات إنسانية مطلقة، لا تستصحب الشرط الأحادي فحسب، أو المنهجي بالطرح المباشر، وإنما تُساوق معها المذخورات والإمكانيات والمسالك التي بلغتها الإنسانية في بناء نظمها المعرفية. فالمعقولية تعني معرفياً؛ فهم العلاقات الثقافية، تحت شَرْطية إنسانية مفتوحة، وليس تحت طائلة المذهبية، أو التعصب المنغلق على شَرْطيات الذات التاريخية، أو الحالية، التي لا تحقق رواج المثاقفة، كما ستحققها اللازمات الإنسانية للتثاقف المفتوح.

والمعقولية تشبه تماماً بناءً نظرياً، أقام الإنسان صرحه على معطيات تواردت إليه من جهات العالم الأربع، وعمل على جمعها وتسخيرها لصالح فكرته، حتى يتمكن من القول للعالم إن فكرتي ليست خاصة بي، وإنما هي مشاع لكل من أسهم في تكوينها وتوليدها

[١٦] الغزالي، أبو حامد. **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**، فصل في المصدقين، مجموع رسائل الغزالي، بيروت: دت، ص٨٣، وما بعدها

وإنضاجها. "لذا يمكن القول، بأن عملية [المعقولية] تجمع بين الملاحظة الإمبريقية واللحظة الحدسية، وبين التراكم المعرفي والقفزة المعرفية، وبين الملاحظة الصارمة، والتخيل الرحب، وبين الحياد والتعاطف، والاتصال والانفصال."[١٧]

واشتراك أدوات الفهم وتعاضدها، يجعل التثاقف الحضاري مقبولاً على نحو أوسع وأوثق عرىً، ويجعل الدعاة إليه في يسر من أمرهم، فإذا سموا نظاماً عالمياً بديلاً، للقائم حالياً، النظامَ العالمي الإنساني التثاقفي التداولي، يجدون صدى واستجابة فورية؛ إذ إن المستضعفين، الذين يعانون من حيف النظام الدولي وجوره، اتخذوا الأسلوب الإنساني المفتوح في تأسيس مشروعية التثاقف.

٥. التعارف:

يُعد زكي الميلاد من المفكرين المنتمين إلى المدرسة التوحيدية المعاصرة، الذين وعوا جيداً مركزية التعارف مقولةً عقديةً، يترتب عليها رؤية حضارية شاملة؛ إذ بشّر بنظرية التعارف الحضاري، من خلال كتابه القيم: "تعارف الحضارات"؛ إذ قدّم فيه تعريفاً لفكرة تعارف الحضارات، بوصفها فكرة جديدة وخلاقة، تنتمي إلى الفضاء المعرفي الإسلامي، وتتحدد في مجال العلاقات بين الحضارات. كما وضّح من أين بدأت فكرة تعارف الحضارات، وكيف نمت وتطورت، وبماذا تتميز عن المقولات الأخرى، وإلى أين وصلت، وما هو مصيرها ومستقبلها، وماذا يمكن أن تقدم في مجال العلاقات بين الحضارات. وأكّد في كتابه أن مفهوم تعارف الحضارات، قد تجاوز مرحلة بناء المفهوم، واكتسب قوة التماسك والتحديد، ودخل حيز المجال التداولي، وبات معروفاً في حقل الدراسات الحضارية، وفي مجال العلاقات بين الحضارات بصورة خاصة.

وتُعدّ نظرية تعارف الحضارات ردّاً معرفياً على نظريات صراع الحضارات، التي مثّلها بشكل جلي كلّ من صمويل هنتنغتون، وفرانسيس فوكوياما. ومكمن القوة في طرح التعارف بديلاً، أنه يمثل مسعى عقدياً في المقام الأول، وجامعاً وثيقاً لأتباع الشرائع والثقافات السابحة في فلكها؛ إذ المصدر الواحد، والقيم المشتركة، سواء في عمق الماضي

[١٧] المسيري، عبد الوهاب. **دفاع عن الإنسان**، القاهرة: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٣م، ص٢٨٨ وما بعدها.

وجذور التشكل الابتدائي، أو الحاجة الحالية إلى قيم الدين حافظةً للبشرية، بعد فشل الأنظمة الشمولية المستمدة من النظريات الفلسفية المختلفة والمتضادة في أحيان كثيرة.

وقد استُنبط المصطلح الوارد بمحتواه الدلالي، من القرآن الكريم، في الآية التي جاء فيها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات: ١٣) جاء في معنى التعارف: "هذه قاعدة إسلامية في النظرة العامة إلى الناس على اختلاف ألوانهم وقومياتهم وخصوصياتهم العائلية والجغرافية، فهي في الوقت الذي تؤكد فيه التنوع في الخصوصيات العرقية واللغوية، والنسبية الجغرافية ونحوها بما تستتبعه من اختلاف على مستوى الواقع، فإنها لا تمنح أي نوع قيمة خاصة ترسم الفواصل بين الإنسان والآخرين، وتقوده إلى استعدائهم أو محاولة السيطرة عليهم بأي عنوان عرقي أو قومي، بل إن تنوع الخصوصيات وسيلة من وسائل التعارف لحاجة كل فريق إلى ما يملكه الفريق الآخر من خصوصيات فكرية وعملية، ليتكامل الاثنان في صيغة إنسانية متنوعة."[١٨]

نفيد من النص السابق، أن التعارف حالة تبادل معرفي وتاريخي واجتماعي، وكوني وعالمي، يتأسس على توافقات نفسية، والتزامات مبدئية، وقيمية، تفضي إلى الإقرار بحاجة المجتمعات إلى بعضها بعضاً، دون السعي إلى تجاوز الخصوصيات الثقافية والقفز عليها، بلوغاً إلى بناء نظام عالمي من التواصلات التي تحفظ للإنسانية توازناتها، بعد تحقيق شرط اطّلاع الحضارات والثقافات والمجتمعات على بعضها، والحفر عن المشترك الإنساني، ومسوغات اللقيا بينها، مقابل الروح اللاغية الماحقة للآخر. "واتجاه النشاط البشري نحو خط الفعالية الاهتلاكية الهدمية، يرتبط على الدوام بتناقص القدرة على التحكم المتكامل...حيث يتسم الجهد الإنساني بالتناقض والتلاغي أو التنافي، سواء على مستوى الجهد الذاتي أو الاجتماعي أو الكوني...ويؤدي إلى حالة من العبثية والاهتلاك الذاتي للجهد...."[١٩] فالخط الوجودي لمسار البشرية، يقوم على معنى مقابل التعارف، وأحوال وأنماط من التجاذب، ينتهي إلى الحكم المتصلب على الآخرين، من غير الإحاطة بما لديهم؛ فينشأ التدابر النفسي، والصدام الممارساتي المهلك جراء الجهل.

---

[١٨] فضل الله، محمد حسين. **من وحي القرآن**، بيروت: دار الملاك، ط٢، ١٩٩٨م، ج٢١، ص١٥٩.

[١٩] برغوث، طيب. **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، الجزائر: دار قرطبة، ط١، ٢٠٠٤م، ص١١٠.

والتعارف في أبسط محتوياته؛ هو المعرفة المتبادلة بقصد إضفاء معقولية التواصل، إن لم يتعد إلى أشكال أعمق وأوسع من الفهم والاندماج، ومقايسة الذات إلى ما عند المقابل من قيم ومشتركات، تنتج استعداد التقبل، وتضيِّق نوازع الصراع والتخلي، والتثاقف أصله التعارف، شريطة التعرف والمعرفة، لا السيطرة والهيمنة. وعلى هذا الأساس "فإن منظور التعارف الحضاري القرآني يؤكد أنه من المفترض أن تتحول مسألة الحوار والحوار الحضاري إلى قضية سلوكية تربوية، وإلى اتجاه حضاري عام يوجّه البناء الثقافي والتشكيل النفسي لهذا الإنسان، ويحدد رسالته بالنسبة لذاته، ورسالته بالنسبة للآخرين."[٢٠] فالمسألة ليست طرحاً نظرياً، يظل رهين الممارسات المتقلبة غير الناضجة، بل تتضافر مؤسسات العمل الاجتماعي النوعي، بقصد غرس القابلية، وتتويجها عملاً سلوكياً، تتوازى فيه الإرادات الكثيرة، بلازمات تربوية تفضي إلى جعل الناس يتحملون التبعات الالتزامية لمقتضيات التبادل الحضاري.

ويورد المفكر الحداثي عبد الله الغذامي معنى إضافياً للتعارف، بقوله: "إن مفهوم التعارف كنقيض للتناكر، يدل على شروط العيش البشري، وشروط البقاء والأمان النفسي، حيث صنعنا الله على هذه المكونات، وأعطانا الأسباب المساعدة عليها، ووصف لنا حالنا مع ظروفنا التي خلقنا عليها."[٢١] فما يدعو الناس إلى التجاور والاجتماع، في انتظامات عالمية وكونية غير لاغية، هو التفاهم المتبادل المتأسس على شرط التعارف وروحه.

ثانياً: مسلوبية الاحتواء

لأن الاعتبار التاريخي الحديث والمعاصر، في غالبه يشير إلى غلبة النظرة الاحتكارية الاحتوائية، في تحديد الصلات التاريخية والحضارية وتوصيفها، ولأننا رأينا تأجيل البديل – بعد عرض الموقف المهتز من الوجهة الإنسانية والحضارية الشاملة، إنْ في أفق ما تفرز عنه

[٢٠] برغوث، عبد العزيز. "التجديد الحضاري والحاجة إلى المنظور الاستخلافي وثقافة التعارف الحضاري"، بيروت: **مجلة الكلمة**، ع٥٦، س١٤، صيف٢٠٠٧م، ص٦٥.

[٢١] الغذامي، عبد الله. "الإسلام والقبيلة"، **جريدة الرياض**، الخميس ١٥ مارس ٢٠٠٧، ع١٤١٤٣.

العلاقات الدولية، أو على مستوى المآل العام، الذي سينحسر رداء التاريخ عنه- فإنا استهللنا التحليل بنظرة الغالب الوقتي القائمة على السلب والمحو والمآل الاغترابي، ثم ثنينا بالبديل التعارفي. ولكي يتسم العرض بعلمية المبنى والدليل، عمدنا إلى إبراز الأسس التي يقوم عليها الرأيان، ثم مظاهر المبادئ على صفحة التاريخ، وجدوى الرأي الأسلم وجودياً وحضارياً.

١. منابت المسلوبية ومكونات الاحتواء:

الوجه الأول للعلاقات الثقافية، أو للتثاقف القائم على التغذية الامتصاصية، مبعثه جملة مؤسسات نظرية وعقدية وأيديولوجية، تتشعب وتتشابك، فتفرز وضعاً تاريخياً ونفسياً، خلاصته الاحتواء والمسلوبية؛ أي عقيدة مبعثها، تصور للحياة بوجه الانفراد والتفوق على ما عند الآخرين، ويكون التاريخ وصيرورته، شكلاً خطياً يبدأ من عندي وإليه ينتهي، ومعابرُ فضاءات الآخر فراغاتٌ عدمية لا يمكن ردمها، أو إيجاد نوع من التعقل داخلها، فنحن المنبثَق، وتالياً نحن المصب.

الفيلسوف الألماني المعاصر هانس جورج غادامير حينما أشار إلى أن الثقافة الغربية، وقدر إنسانها عبر تاريخها، تحدد فقط هناك في أعماق الجذور اليونانية الإغريقية، متناسياً أن الوعي لا يظهر منبّتاً ومعلقاً في فضاء الوجود، بغير عوامل ممهدة، "الثقافات التي ليست لها أصول في الثقافة الإغريقية، بخلاف ثقافتنا، وهذا هو السبب لاهتمامنا بالمراحل الأولى لتطور الفكر الإغريقي. إنّ مثل هذه الدراسة...تعمق فهمنا لقدرنا الخاص، القدر الذي بدأ على نحو دقيق، كما هو حال الفلسفة والعلم الإغريقيين، في تلك السنوات التي بدأ فيها رسوخ سيطرة اليونان على العالم المتوسطي، سواء في البحر أم في التجارة، وقد تبع ذلك تطور ثقافي سريع."[٢٢] وعلى العالم أن يتصور منشأ حضارة وكيان ثقافي، باعتبار العوامل التاريخية، وكأنها عَدَمٌ انبثق منه الوجود فجأة، دون مسوغات ظهور وُجدت عند الشرقيين، ليس لأنهم كذلك، وإنما ولد الغرب وثقافته،

[٢٢] غادامير، هانز جورج. **بداية الفلسفة**، ترجمة: علي حاكم صالح، وحسن ناظم، ليبيا: دار الكتاب الجديد، ط١، ٢٠٠٢م، ص٦.

بتفاعلات تلاقحية، وهذا من مولدات التدابر الثقافي المفضي إلى حالات الاستلاب والمسلوبية، فيمتنع الحوار والتثاقف.

ورُبَّ قائل يقول، ما ذنب المصب، إذا تكوّن الثقافة جاء على هذا النحو ابتداءً؟ وهنا يسعف قول غادامير، للبرهنة على منشأ الرؤية الاحتوائية "أظن في هذه النقطة، التقيد –بدقة– بحقيقة أن شيئاً ما يمثل بداية وحيدة فيما يتعلق بنهايةٍ أو هدف، وفيما بين هذين الاثنين، البداية والنهاية، يشخص ارتباط غامض، فالبداية تتضمن دائماً النهاية...والنهاية تحدد البداية."[٢٣] فقدر الغرب ثقافياً التفرّد، والاستقلال التام، الذي لم تتدخل أية حضارة، عبر تاريخ العالم الطويل، في تكوينه أو مساعدته أو الإسهام فيه، من أي نوع كان!

ولكي يتمكن الغرب ثقافياً من الانكفاء على الذات، والانغلاق في بوتقة الموروث الخاص الذاتي، عبر تشكلاته المترامية تاريخياً، من اللازم استصحاب شرط التكوّن، والعمل على تكوثره باستمرار، وهذا ما أقره صمويل هنتغتون، في كراسته الصغيرة، ذات المغزى الكبير، "الغرب متفرّد وليس متكرراً": "إن تعزيز تماسك الغرب، يعني الحفاظ على الحضارة الغربية في داخل الغرب، وتعيين حدود الغرب. ويقتضي الحفاظ على الحضارة الغربية أموراً، من بينها التحكم في الهجرة في المجتمعات غير الغربية،...وضمان اندماج المهاجرين الذين يسمح بهم في الحضارة الغربية، والاعتراف بالحلف الأطلسي...وأن هدفه الأساسي هو الدفاع عن هذه الحضارة والمحافظة عليها."[٢٤] والدول الراغبة في الاندماج في الحضارة الغربية لا يسمح لها بذلك، من منطلق وحدة الغرب، وتميّزه، وتفرده. وتركيا ومحاولاتها للدخول إلى الاتحاد الأوروبي خير مؤشر على صدق التحليل، فكيف يتأسس إرهاص قبول الآخر في ظل هذا الوعي وهذه النفسية؟

٢. الانكفاء على الذات، والتوجس من الآخر:

وما يُرْبِي التحليل السالف، ما قاله الفيلسوف الفرنسي المعاصر، روجيه غارودي، في كتابه المهم، "الإرهاب الغربي"، حينما أومأ إلى عمق الوعي المتقنفد (انزوى على نفسه

[٢٣] المرجع السابق، ص١٤-١٥.

[٢٤] هنتنغتون، صمويل. **الغرب متفرد وليس متكررا**، القاهرة: مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، د.ت، ص٢١-٢٢.

كفعل القنفد) على الذات، وجذوره التاريخية العميقة؛ إذ "طريق الهيمنة الذي أخذ اليوم اسم العولمة، أضحى ممهداً جداً، وهذا الطريق يضرب بجذوره إلى آلاف السنين منذ أسطورة الشعب المختار، التي بررت إبادة الآخرين، حتى الإمبراطورية الرومانية، التي ادّعت أنها تضم في حدودها كل العالم المعروف آنذاك، وهذا ما سمته أوروبا بالحضارة، كما لو كان ذلك حكراً عليها، لكي تعطي الشرعية لاستعباد الشعوب الأخرى واستعمارها، أما قادة الولايات المتحدة الأمريكية، فقد جعلوا مهمتهم –التي كلفهم بها القدر– هي قيادة العالم، لإقامة نوع من العولمة؛ أي نظام وحيد خاضع لما أسماه أحد منظريها بقانون السوق."[٢٥]

فمنطق الأفضلية، والاصطفاء الحصري، لخصوصيات عرقية وثقافية، لازمةٌ للوعي الآخر، منذ قدمه، بمقولات مركزية، لا يمكن زحزحتها، أو التشكيك فيها؛ فشعب الله مختار، وإله الجنود يقوده، وأمم الأرض تذلل، ومن امتنع فقوة الرومان، وحيلة اليونان وحكمتهم تلزمه، وقدر الوجود أوجب الخصوصية الأبدية، وكل العالم مُلك، مباح مشاع، يمتدون فيه بغير وازع أو مانع، فأين ممهدات الحوار ومسوغاته؟. ولقد أشار نائب مؤسس الولايات المتحدة الأمريكية، جون آدمز إلى قريب من هذا المعنى بقوله: "لن أكف عن الاعتقاد بأن تأسيس أمريكا ليس إلا إرادة للعناية الإلهية، لتعليم وتحرير قطاع كبير من البشرية التي ما تزال تخضع للرق... لقد أوجدت العناية الإلهية أمريكا، لتكون مسرحاً يحقق فيه الإنسان مكانته الخاصة."[٢٦]

وإن لم يُوجِد الرب أمريكا، ما مصير الإنسان في بقية العالم، هل يهلك؟ تاريخ البشرية قبل عام ١٤٩٢م، كيف كان؟ أي قبل ما يزعمونه، اكتشافاً للعالم الجديد، والعجيب أنه من أقدم العوالم على وجه الأرض، وأنه من المناطق الحضارية الزاخرة، وخذ من (الأنكا) وحضاراتهم ما يؤكّد هذه الحقيقة. ومن أراد الحضارة فعليه بنمط الحياة الحقيقية في الرؤية الغربية وممارستها "والتنمية –كما تطلق عليها مجتمعاتنا الغربية

[٢٥] غارودي، روجيه. **الإرهاب الغربي**، ترجمة: داليا الطوخي وآخرون، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط١، ج١، ٢٠٠٤م، ص٤٩.

[٢٦] المرجع السابق، ص٦٩.

المعاصرة- يتم تحديدها وفقاً لمعايير معينة أحادية."[٢٧] وكل شكل للحياة مخالف، فهو لا إنساني، وغير حضاري، بل متوحش. "فالثقافة الغربية المسيطرة، منذ خمسة قرون، والتي تعد نفسها المصدر الوحيد الخلاق للقيم، والمحور الفريد للمبادرة التاريخية، تقوم على ثلاث مسلمات للحداثة:

– مُسلَّمَة آدم سميث في العلاقات الإنسانية، والقائلة: عندما يعمل كل منّا في سبيل منفعته الخاصة، فهو بهذا يساهم في تحقيق المنفعة العامة.

– مُسلَّمَة ديكارت في علاقتنا مع الوجود، التي تجعلنا أسياد الطبيعة ومُلاك الوجود.

– مُسلَّمَة فاوست في علاقتنا المستقبلية؛ إذ كتب الأديب المسرحي مارلو في مُسلَّمَة فاوست الأولى: أيها الإنسان، تحول بفضل عقلك القوي إلى إله وإلى سيد ومولى كل عناصر الكون."[٢٨] جميعها؛ ماديّها وبشريّها، وخذ منه ما تقدر عليه، ولا تأبه بالآخرين، فإنهم طوع بنانك، وقيد شرطك؛ فالغربي سيد العالم بما فيه، وليس في مَكَنة أحد أن يناقش، فمنفعتنا منفعتهم، فكل الواقع يمرُّ من خلالنا، نحن منتجو الحقيقة، ومعيارها، وإذا أراد الآخرون سبيل النماء، فدربهم نحن، فهم قُصّر لا يملكون من أنفسهم، أقل مما نحوزه منهم، وكذلك كل العالم. وهكذا ينعدم التثاقف، باعتبار ذاتية المنطلق والغاية.

٣. ازدواج المعايير، والمكاييل المائلة:

التعامل مع قضايا الإنسانية برؤية تعمد إلى الاحتواء بناء على النظرة المميّزة، يؤكده ما أبرزه إدوارد سعيد، في تعاطيه مع المسألة الفلسطينية، قبالة المسألة اليهودية إذ بيّن كيف نظر المجتمع الغربي إليهما بمنظار التفاوت الواضح، بزعم أحقية يهودية في أرض فلسطين، التي هي أرض بلا شعب، فـ"بعد إقامة إسرائيل كدولة يهودية في فلسطين، فقد حدث، من جديد نوع من إعادة التصنيف والتبويب والفصل لجملة من الأعراق والأقوام والشعوب، التي سبق لها أن بدت لدارسي الظاهرة في أوروبا القرنين التاسع عشر

[٢٧] المرجع السابق، ص١١٧.
[٢٨] المرجع السابق، ص١٣٥.

والعشرين، إعادة لعملية تجسيد سلسلة الانقسامات التي كانت فيما مضى ملأى بالدماء والقتل، بين ظهراني من كانوا، ذات يوم، كتلة سكانية، متنوعة متعددة الأعراق للعديد من الشعوب. وفي هذا السياق أقدم الغرب الأطلسي على تبني إسرائيل دوليا،...وإعاقة تطور شعوب المنطقة الأصلية غير الأوروبية، أطول مدة ممكنة."[٢٩] فلم يكفهم أن أعطوا إسرائيل وعداً بما لا يملكون، بل جاوزوا ذلك إلى حمايتها، والتنظير لأحقيتها، وخطأ الأغيار في تصورهم للمسألة. وكل الهيئات العالمية ملزمة، بالإقرار بمفاد ما فعلوا، بمواثيق قانونية عالمية، أو بساعد القوة، بمنع دول الشرق الأوسط وشعوبها، من تكوين كيانات ثقافية وسياسية قوية، إمعاناً في ضمانات البقاء والاستمرار لدولة إسرائيل، التي كانت في الأصل بمحتوياتها عبئاً ينبغي التخلص منه، فداعي الاستيطان ليس رؤيوياً، بقدر ما هو استراتيجي.

ويتحكم في الخلاصة التي انتهينا إليها، أن الصورة العامة التي رسمناها هي صورة "لأيديولوجية استيطانية، اقتلعت بعض أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب وغرستهم غرساً في فلسطين، بعد أن استولت عليها وطردت سكانها منها، وقد تمت عملية نقل اليهود باسم شعارات يهودية، مثل أرض الميعاد...ويساند الكيان الصهيوني كله دولة استعمارية راعية (إنجلترا في البداية والولايات المتحدة الأمريكية في الوقت الحالي)، وهذه الدولة تفعل ذلك؛ لأن جماعة المستوطين -بغض النظر عن إدراكهم لأنفسهم- هم موضوعياً جماعة بشرية مملوكية تخدم مصالحه الاستراتيجية."[٣٠] فلا يهم مصادرة الحقائق لحساب المصالح، وتحويل كل العالم إلى أداة استعمالية، حتى يصل الأمر بالرؤية الاحتوائية، بالمتاجرة بآلام الآخرين ومعاناتهم، المهم أن تتحقق الغاية، وإن لوي عنق التاريخ وحقائقه، وفسِّر بكيفيات تتوافق والمصالح المشار إليها.

لقد فقدت الإنسانية في علاقاتها الدولية خاصة، وفقدت اتجاهاتها، فتولّدت حالة من العداء المتغطرسة على الآخرين، وظلمهم. ومن المستغرب بمكان أن تعمد المؤسسات

---

[٢٩] سعيد، إدوارد. **فرويد وغير الأوروبيين**، ترجمة: فاضل جتكر، بيروت: دار الآداب، ط١، ٢٠٠٤م، ص٥٨-٥٩.

[٣٠] المسيري، عبد الوهاب. **الأيديولوجية الصهيونية**، الكويت: عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط٢، ١٩٨٨م، ص٣٢٤.

الدولية إلى تبرير الظلم؛ فيكون الجلاد صاحب حق، والمعتدى عليه ظالماً، وتصفح قرارات مجلس الأمن الدولي يؤكّد هذه الحقيقة.

ولا يكفي أن تظلّ المجتمعات الإنسانية، في دائرة حاجاتها البيولوجية البحتة، وإنما غذاؤها الروحي أَوْكَد وأبرز؛ لأنه ضمانة عدم التغطرس والتعدي، فـ"إذا شبعت البطون تبقى الأرواح متطلعة، وحين لا تجد وجهة تتطلع إليها تفضل الاستقالة من الحياة."[٣١] فما الحيرة، وجودياً، إلا فقدان بوصلة التوجيه حياتياً، فتصبح المجتمعات على المستوى التاريخي متخبطة بين خيارات قاتلة، ومتراوحة بين صور للحياة انتحارية، وخذ مثالاً على ذلك تطبيق رؤى البشر وفهومهم في تصور التاريخ وفاعليته في الحربين العالميتين الأولى والثانية، ثم تعدِّي الكيانات الغاصبة على مجتمعات مسالمة، ليس لها من جريرة إلا أن تدفع ثمن الأخطاء الفكرية والرؤيوية والأخلاقية القاتلة، للنظريات البشرية القاصرة ابتداء، فما بالك في كونها ذات روح استغلالية استكبارية تالياً.

ونشير هنا إلى آراء بعض كبار فلاسفة الحضارة في الغرب، ومنهم الفيلسوف الألماني ألبرت شفيتسر في سِفْرِه المهم "فلسفة الحضارة"، ويشير في بدايته، إلى أننا "نعيش اليوم في ظل انهيار الحضارة، وهذا الوضع ليس نتيجة الحرب، إنما الحرب مجرد مظهر من مظاهره، ولقد تجمد الجو الروحي في وقائع فعلية ينعكس أثرها عليها انعكاساً له نتائج مدمرة عن كل ناحية، وهذا التفاعل بين ما هو مادي وما هو روحي قد اتخذ طابعاً مضراً كل الإضرار."[٣٢] لكن رُبَّ قائل يقول: التوصيف المورد فيه مبالغة، و إلا كيف نفسر كل هذا التطور التقني الهائل الذي يلف البسيطة كلها، وتنعم البشرية تحت ظله؟ تتبدد مسوغات السؤال إذا ألمعنا إلى أرقام الفقر في العالم، وإلى الهوة السحيقة المفتعلة بين عالم الشمال والجنوب، وما يسمى بالدول الكبرى، والصغرى، فأبسط قياس يظهر مبلغ الحيف والظلم الواقع على الإنسان بما هو، باسم التقدم والتطور. ففرق بين من تقتله التخمة وآخر يهلكه الجوع، بين من يستهلك ٨٠% من خيرات العالم، وهو لا يشكل

[٣١] ابن نبي، مالك. **مجالس دمشق**، سوريا: دار الفكر، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٦٥.

[٣٢] شفيتسر، ألبرت. **فلسفة الحضارة**، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، بيروت: دار الأندلس، ط٣، ١٩٨٣م، ص١١.

إلا ٢٠% من سكان الأرض، و٨٠% من سكانها لا يستهلكون إلا ٢٠% من خيراتها، ثم يقال إن الإنسانية الآن تعيش العدالة والرشد العالمي.

وفي موضع آخر يقول شفيتسر "من الواضح لكل ذي عينين أن الحضارة في سبيلها إلى الانتحار، وما بقي منها لم يعد في أمان، إنها لا تزال قائمة لأنها لم تتعرض للضغط المدمر الذي طغى على التبعية [هكذا]، لكنها كالبقية بنيت على شفا حرف...ومن المحتمل أن يجرفها أي انهيار جديد."[٣٣] فظاهر القوة لا يعني بأية حال أن الأمر كذلك، فلم يسقط الاتحاد السوفياتي إلا بعد أن بلغ أوج قوته.

ولسنا بصدد إيفاد التحليل السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي للدلالة على حال الإنسان اليوم، وعجز الصلات الثقافية، أو تفاوت مستوياتها بحسب الدوائر الحضارية المختلفة، وإنما نبغي الكشف عما هو أعمق وأدل، وهو القصور الإنساني من حيث ما هو؛ فالاستغناء في المعنى القرآني يقود إلى نهاية مؤذية ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ (العلق: ٦-٧)

وعندما استغل الإنسان طاقاته الذاتية بعيداً عن الحماية الفوقانية المتجاوزة، انتهى به الأمر إلى التشرد وجودياً، وتجريب كل ما يظن أنه صالح. غير أن النتيجة وقوعه في ضيق لا يفتأ يخرج منه حتى يقع في من ضيق لآخر، ويخرّج نكسات تاريخية؛ فالجوع يفتك بملايين الناس، وكذلك الجهل، والاستعباد، واغتصاب الحقوق، وقسمه العالم إلى دول في الشمال وآخر في الجنوب، ومؤسسات يمنع الضعاف من دخولها، أو الاحتماء بلوائحها، والبرمجة للحراك الاقتصادي والمعرفي والسياسي عالمياً، لأنهم يملكون القوة، وقد قالها فلاسفتهم، من امتلك المعرفة حاز القوة، ومن حاز القوة، صاغ الحقيقة.

٤. ثقافة الإمبراطورية، وضمور الوازع الإنساني الكوني:

مقولة تحليلية تفسيرية أوردها المفكر الجزائري مالك بن نبي، في معرض توصيف الروح الكامنة خلف التصرفات الغربية إزاء العالم، والموقف من البشر؛ إذ يقول: "فها نحن

[٣٣] المرجع السابق، ص١٢.

أولاء من أول خطوة في طريقنا أمام اختيار رئيسي، فإما أن نعرف الثقافة وسيلة للإمبراطورية، وإما أن نعرفها طريقاً إلى الحضارة، وبعبارة أخرى يواجه المجتمع مشكلاته بلغة القوة، أو بلغة البقاء، بقدر ما تصوغ ثقافته أسلوب حياته وسلوك الأفراد فيه."[٣٤] فمنبع الصلات الثقافية بين المجتمعات البشرية، هي النفسية التي يتكون عليها الأفراد ويأخذون منها طباعهم، وهي العنصر الأولى المولّد لوعيهم بالعالم، فإما أن تحمل على روح السيطرة والتحكم، وإعمال الممكن وغير الممكن، في سبيل إخضاع الآخرين، بمنطق الإمبراطورية والروح الغالبة المتوسعة، وإما أن تؤدب وفق مقاييس الإنسانية جمعاء، لصالح الإنسان.

وبحكم الاحتكاك الثقافي بيننا وبين الغرب المعاصر –وفي مقدمته أوروبا– فإننا ملزمون نظرياً، بالنظر في محتوى الوجدان الأوروبي إزاء العالم، حتى نستبين طريق الوصال معهم، وحتى نتبيّن بعض تصرفاتهم تلقاءنا؛ فلا نستغرب الفشل، إذا علمنا أن "أوروبا التي ورثت التقاليد الرومانية من عصر النهضة، قد أصبحت اليوم رهينة ثقافة إمبراطورية. فقد تغذى ضميرها بما أثار القرن التاسع عشر من قضايا، وهو القرن الذي شهد ازدهار فكرة جوبينو، ذلك الكاتب الذي طبق أفكار داروين عن أصل الأنواع، على مجال الإنسان، فخلّف بهذا القرن العشرون تراثاً ضاراً ثقيلاً، أنتج أمثال هتلر."[٣٥] ونعرف ما فعله هتلر، وما تفعله روح الاستعلاء المبثوثة هناك في الأجيال الجديدة مما ينعت بالنازيين الجدد، وكيف عانى المهاجرون العرب والمسلمون منهم ولا يزالون. وما موجة العداء الصارخ للإسلام وقيمه إلا مؤشر على ذلك؛ مثل: الحجاب والرسوم المسيئة للرسول الأعظم ﷺ، وشن الحروب على الآخرين؛ تتويجاً لضمير النظرة الاحتوائية المستلبة للآخرين وحظهم في البقاء. ولا يزال الأمر على حاله، في نظرة الغربيين، وما يسمى سلاماً هو "نتيجة لحرب ظافرة، وليس نتيجة لتخطيط صالح للحياة الدولية، تحت رقابة فعّالة من الضمير العالمي؛ ففكرة السلام لم تحقق حتى الآن استقلالها وشخصيتها الخاصة، وهي تدين في خضوعها هذه للثقافة الإمبراطورية، التي لا ترى السلام إلا حيثما يكون مؤيداً

[٣٤] ابن نبي، مالك. **مشكلة الثقافة**، مرجع سابق، ص١١٩.
[٣٥] المرجع السابق، ص١٢٤.

بالسلاح."[٣٦] ويلي الوضع المدجج بترسانة فقدان الثقة؛ أين يفضي بنفسيات الناس وأحوالهم إلى التوجس والريبة، وعدم الإيمان بالآخر؛ تاريخاً وذاتاً، وبانحراف مضمون الثقافة، ينحرف اتجاهها، "وإذا انحرفت المواقف الثقافية فإنها تصبح تريد الشر"[٣٧] وتلح عليه. وأبلغ ما في الأمر، تبرير الشر تحت مسوغات، قد لا تستظل تحت أدنى دليل، فقط لأن روح القوة، قد عزم ألا ينصت سوى لقوة العضلات. ونخلص إلى نتيجة مفادها، "أن الإنسانية بشطريها: المتخلف، والمتحضر تعاني أزمة خطيرة، تعدّ أخطر أزمة في وجودها على سطح الأرض، وفي حين يسير الزمان كعادته إلى مصبّ، فإننا نرى خطورة هذا السير من خلال التوقعات التي تصورها لنا ملابسات هذه الفترة من الزمن التي نعيشها الآن، بكل تقلباتها السياسية والعسكرية والثقافية...لأن التاريخ سينفرد إلى حدّ كبير بأشياء أخطر مما يتصور العقل، كأنما التاريخ تجمع منذ بدايته...واقترب من مصبه...وسينصبّ قريباً في سنة ألفين، التي تضع أمام الإنسانية جمعاء أخطر نقط الاستفهام، على مصير الإنسانية منذ بدايتها."[٣٨]

ويكون الجواب ليس وعي العالمية المتدابحة، وإنما القوة الخرساء التي تتكلم لغة العضلات، ولا تستجيب للقانون، فكيف بالتثاقف طريقاً وأملاً؟

٥. عولمة الذات وتنميط الآخر:

من أخطر موانع التثاقف، فكرة العولمة ذاتها، بخاصة إذا فهمنا العولمة بوصفها تعميماً وفرضاً لنموذج الحياة الغربية، بكامل أبعادها الأيديولوجية، والاجتماعية، والنفسية، والأخلاقية، وأسلوب المعيشة، وطريقة التفكير، ونمط الذوق، والحساسية الجمالية، إلخ.... باختصار النموذج الحضاري الغربي، والرؤية الكونية الغربية؛ إذ تعمّ أرجاء العالم إلى أبعد نقطة ممكنة ومتاحة، وغير متاحة إن لزم. وتغدو العولمة بذلك، عمليةَ ابتلاعٍ للعالم بثقافاته وإثنياته وخصوصياته، ثم إعادة إنتاجه وفق منظور مادي رأسمالي سلعي شيئي.

[٣٦] المرجع السابق، ص١٢٨.
[٣٧] ابن نبي، مالك. **مجالس دمشق**، مرجع سابق، ص١٠٥.
[٣٨] المرجع السابق، ص١٧٩.

وتتخذ عملية التعميم ركائز ودعامات متنوعة ومتداخلة، منها: الغزو الثقافي؛ إذ لا يزال الغرب يذكر بأنه حامل لرسالة حضارية إلى العالم، مفادها: نقل الحضارة إلى شعوب العالم، وإخراجها من ضيق منظوماتها الحياتية وضحالتها، إلى سعة الأسلوب الغربي فيها، وهكذا كانت دعوى الاستعمار والتنصير والاستشراق، ودعوى العولمة الآن.

لا خلاف في ما سبق توصيفه، من تأكيد الغرب على أزلية تفوق الثقافة الغربية وكونيتها، بسلاح، العلم، وإن كان الأمر فيه نظر. فهذا صاحب كتاب "نهاية التاريخ" يشير علينا بجدوى اللحاق بقاطرة المدنية الغربية ونموذجها المعيشي؛ لأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، فإما الغرب بديمقراطيته ورأسماليته وحداثته،[٣٩] وإلا لا تقدّم ممكن؛ لأن التاريخ قد وضع رحاله، وكفّ عن الترحال في نهايةٍ ليس لها بعدها، ولم يشهد العالم لها قبلها، والإنسان الذي أنتجته هذه المدنية هو آخر إنسان سيتمخض عنه التاريخ.[٤٠]

إضافة إلى الترويج لعالمية الثقافة الغربية، والإلماح إلى إنسانيتها وحضاريتها، وأنها نتاج لمجهود البشرية كلها عبر مسار تاريخها الطويل والشاق، فإن الجميع مطالب بمشاركتها منجزاتها –لا إنجازاتها– ولا داعي للإصرار على مضادتها؛ لأن من يأتي ذلك همجيٌ يقف ضد للحضارة، وعدوٌ للعدالة، خارجٌ على القانون .

والآليات الواردة قبلاً لها حضورها في مستوى آخر، ونعني به الناحية النفسية، عن طريق الإيحاء والإيهام، بترويج مقولة: قِدَم المخزون الخاص، وكون الثقافة الخاصة قديمة بالية تمتد بجذورها إلى عصور الظلام، والقرون الوسطى –لاحظ تغييبها للتقويم التاريخي الخاص بالأمم الأخرى– التي تم تجاوزها بتحديث الإنسان، خاصة بعد أن تمت غلبة الدين ورموزه وشعاراته الرجعية المنافية لكل تقدم، وعندئذ لا وعي ولا تقدم إلا باحتضان الثقافة العالمية، التي لا بديل عنها، والتنكر للخصوصية الثقافية التي هي ضد الإنسانية.

وتعتمد العولمة أيضاً على القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية، وقبلها وأخطرها الثقافية؛ إذ تحتوي كل من ينتهج أسلوباً حياتياً مختلفاً ومغايراً، ويريد تأكيد خصوصيته

[٣٩] فكوياما، فرنسيس. **نهاية التاريخ والإنسان الأخير**، ترجمة: مطاع صفدي وآخرون، بيروت: مركز الإنماء العربي، ١٩٩٣م، ص٧٠.

[٤٠] المرجع السابق، ص٢٦٧، ٢٧٨.

الحضارية الشاملة، احتواءً يتم بالحصار (العراق، ليبيا، إيران، كوريا الشمالية...)، وضرب العملات المحلية (النمور الآسيوية؛ خاصة ماليزيا)، ورعاية الانقلابات، وتمويل المعارضة المسلحة والسياسية (الأكراد، حركة خلق، حركة قرنق، تيمور الشرقية...)، وفرض سياسات محددة من طرف البنوك العالمية المقرضة، والتدخل في سياسات السيادة (التعليم، الصحة، التوظيف، الإنفاق...). وتشنِّع العولمة على كل خصوصية تحت مسميات مختلفة ومقصودة، كما هو الحال تجاه الحركات الإسلامية، التي تُلح العولمة المأمركة وقاموسها على نعتها بالإرهاب والأصولية (بالدلالة الغربية)، وعلى أنها خطر محدق بالمجتمعات الإنسانية جمعاء، وأنها معادية للعدالة والحرية والحداثة...، "بل إن بعض الكتاب الغربيين، الذين أطلقوا مصطلح الأصولية على الصحوة الإسلامية المعاصرة نراهم وهم يتحدثون عن علاقة هذه الصحوة بالماضي الإسلامي، يجعلون موقفها هذا من الماضي والتراث على العكس من موقف الغربيين."[٤١] ويضاف إلى هذا، العمل على دعم الديكتاتوريات ضد التعدديات الحقيقية المعارضة للسياسة الغربية ومصالحها.

أما التداعيات المباشرة لهذه العولمة؛ فتتمثل في إلغاء الخصوصيات الثقافية للمجتمعات الإنسانية قاطبة، واحتوائها ضمن نسق من القيم والأساليب، بادّعاء عالمية ما ينتجون، وكونية ثقافتهم وعلومهم، وضرورة الاندماج في القرية الكونية، وبخاصة في مجال الإعلام، من خلال الترويج للقنوات الفضائية، وتبني شبكة المعلومات (الإنترنت) آليةً للتواصل بلا رقيب.ولتمرير هذه المغالطات وترويجها، جنّدت الطرق جميعها؛ لإظهار الإنسان الغربي (سوبرمان)، فوق جميع الناس،كما ورد عند الفيلسوف الألماني نتشه في كتابه "هكذا تكلم زرادشت"، وأنه أرقى وأكمل نموذج ممكن ومتاح للإنسانية؛ فالغرب تقوم صِلاته مع الآخرين، بمنطق عولمي، يمتح من "أسطورة الثقافة العالمية التي يتوحد بها الغرب، ويجعلها مرادفة لثقافته، وهي الثقافة التي على كل شعب أن يتبناها حتى ينتقل من التقليد إلى الحداثة؛ فالفن فنه، والثقافة ثقافته، والعلم علومه، والحياة أساليبه، والعمارة طرازه، والعمران نمطه، والحقيقة رؤيته."[٤٢] وبعد كل ما قيل، أليس إلى خروج من سبيل؟

---

[٤١] عمارة، محمد. **الأصولية بين الغرب والإسلام**، القاهرة: دار الشروق، ط١، ١٩٩٨م، ص١٤ وما بعدها.

[٤٢] حنفي، حسن. **ماذا يعني علم الاستغراب**، بيروت: دار الهادي، ط١، ٢٠٠٠م، ص٥٧.

هل يمكن معارضة العولمة لكونها تشكّل تهديداً للخصوصيات الثقافية؟ أو أنها وطأة تاريخية وسياسية وعالمية لا يمكن الفكاك منها؟!

ثالثاً: معقولية التعارف

١. المُؤَسسَات النظرية والعقدية للرؤية التعارفية:

مِن ادعى الأمور التي يجب العمل على أساسها ومن خلالها، الترويج لفكرة تنوع البشر، وغنى تجاربهم التاريخية، وأنه من غير المقبول قولبتهم في أشكال جاهزة وتامة؛ لأن الأصل الوجودي فيهم –أي البشر– هو التنوع والتعدد في إطار من التفرد الذي لا ينفي تواصلهم وتعارفهم بحسب لغة القرآن الكريم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات: ١٣)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (النساء: ١).

فمع اختلاف الناس ووجودهم من فجر التاريخ في تجمعات، وهم يتباينون في نظمهم الحياتية واستعداداتهم وإمكانياتهم، ولكنهم انصهروا في قوالب واحدة تختص بمناطقهم ومدى تجاوبهم معها. واستمر التعارف بينهم، ونقل بعضهم إلى بعض خبرته بالحياة؛ فتلاقحت الحضارات والثقافات، وتناسل بعضها من بعض، فكان الإنسان في أمتن منجزاته وأكثرها تفرداً، مع بقاء الأصل وإن تطاول الفرع وسمق؛ فالفُرس أخذوا من الصينيين فتعاظم فيهم الأدب والعمران، وعنهم أخذ اليونان فنبغت فيهم الفلسفة وظهر فيهم عظماء العقل ومبدعو المنطق، وعنهم اقتبس الرومان فشادوا العقل قوة، والمنطق عمراناً، فتوسعت ديارهم حتى بلغت مشارف العالم القديم وأرضه، ومنهم قاطبة تعلم المسلمون، ومزجوا ما أخذوا بما أسسوا تفرداً بوحي من القرآن والسنة، فظهر أغزر إنتاج عرفه الإنسان إلى وقتهم، وانبثقت علوم ما سُبقوا إليها، أصولاً للفقه والدين، ونحواً يقوِّم اللسان. ولم تنكر أمة على غيرها ما هي فيه، بل سعت إلى التعلم منها، والاستزادة، حتى كان لها ما كان. إذن؛ فالتعدد والتنوع هو المدخل المعرفي والوجودي الذي إن توسع

الاعتقاد فيه، سيقضي على سطوة العولمة ومسلوبية الثقافة، وهيمنة النظرة الواحدة، أو سيحولها إلى عالمية تنضوي البشرية جمعاء تحت سقفها.

لم تَعُد خرافة كونية ما يصنعه الغرب تنطلي على ذي بال، فالعالَم وإن أخذ من مدنية الغرب وتقنيته، فهو يعمل ذلك تحت عنوان العِلم صنيعة الإنسانية، عبر مكابدات تاريخها الضارب في أعماق الزمن، ولكن بإخضاعها لغربلة قِيَمِيَة، تنتج حياة مواكبة لحاضر البشر في ظل مبادئ وقيم خاصة (نموذج الصين والهند وإيران وماليزيا). أما الغزو الثقافي فقد تمكنت حضارات العالم من تطوير بعض أساليب الحد من سطوته، بظهور حركات الصحوة القومية والدينية...والعمل على بعث موروثات الماضي، والسعي إلى جعلها تواكب الزمن، وإن سعت العولمة إلى تبشيعها، وتوصيفها بالأصولية تارة، وبالخارجة عن التاريخ طوراً، فضلاً عن تعاظم دور المناوئين للعولمة من الغربيين أنفسهم، خاصة أن وتيرة حوار المثقفين والعلماء تزداد بين الفينة والأخرى. وهكذا يتكامل عقلاء المعمورة في صد شبح الفاشية والشمولية العولمية. وما يضمن لهذه الحوارات الاستمرار والإثمار، أن التاريخ -كما يقول جودت سعيد- في طريقه إلى الرشد وتعليم البشرية درب الحرية والكرامة، مما يعني -على المدى البعيد- تعاظم المتعاونين السلميين، وتقلّص المناوئين لكل تفرُّد، ممن لا يقبلون رؤية إلا أنفسهم، وإن كان في سمت الآخرين وحياتهم.[٤٣] ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤).

والتنوع حقيقة كونية مطلقة شاملة لكل الكائنات في عالمي الغيب والشهادة، دلالةً على وحدانية الله سبحانه وتعالى، وترسيخاً للعظمة الإلهية، القادرة على إيجاد كل شيء مختلف متباين ومتعدد، إلا الذات العلية السرمدية، فإنها قائمة بالوحدانية والأحدية؛ وصولاً إلى أرض عامرة حافلة، غاصّة بصنوف شتى من الكائنات الحية والجامدة، من شجر، وحجر، ونهر، وحيوان، ومن كينونات بشرية؛ سمراء، وبيضاء، وحمراء، وسوداء.

[٤٣] دواق، الحاج بن أحمنه. **من العولمة إلى العالمية، معارضة العولمة ممكنة وواجبة**، موقع الشهاب الثقافي، ١٤٢٨/٠٤/١٧هـ، انظر:
http://www.chihab.net/modules.php?name=News&file=article&sid=1807

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤). "لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود –وفي رواية لأحمر على أصفر– إلا بالتقوى" الحديث.

فالآيات تدل على أن التنوع الكوني الطبيعي الحي والجامد، له مشروعيته الوجودية من ناحية، وله مصداقه التاريخي والاجتماعي من جهة أخرى، ويشهد لهذا التنوعُ العرقي والقومي، والتعددُ اللساني ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (الروم: ٢٢). وتباينُ الرؤى الحياتية ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٤٨). ومناهج الحياة ونظمها ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة: ٤٨). ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الحج: ٦٧).

فالكون والأرض كأنهما مساحة شاملة واسعة تحوي طرقاً لكل أفقها، والإنسان مطالب فطرياً وطبيعياً وتاريخياً وتشريعياً بسلوكها، ولا خيار له في ذلك، ولكن ألا ينتهي به الحال إلى الصراع والتضاد والإقصاء والاستعباد والتهميش؟

نعم إذا عدّ البشر التنوع تهديداً، وضاقوا به، وعملوا على زحزحته، بالقضاء على بعضهم، أما إذا عدّوه مورداً وجودياً حافلاً بالحيوية، ودافعاً إلى العمل لصالح الإنسان من حيث ما هو، فإن الأمر سيستحيل إلى حالة من الانسجام المتقارب، الذي يضع أرضية اتفاق واشتراك يسمح بالتعاون والتعاضد. فالبشرية تبقى أقواماً كثيرة يقبل منها الأسودُ الأبيضَ، والأصفُر الأحمَر، والعكس، دون استعلاء أو تفاضل، إلا فيما تقدمه كل جهة

مما ينفع الناس. واللغات مرآة الأمم وحاملة هويتها؛ إذ تظلُّ على عبارتها ومفهومها ومنطوقها، إلا فيما يتم تطويرها بين أهلها. والديانات لا إكراه فيها، فكل معتِقد مُسْلِمٌ بما يؤمن به، والدين الواحد، موحد الأصول متعدد الفروع والمذاهب. والحضارة الواحدة مشتركة القيم والمصير، لكنها حاوية لأقوام شتى. فالإسلام حضارة انضوى تحت جناحها: البربر والكرد والعرب والفرس والترك والهنود والأفارقة والفراعنة...ومع ذلك عاشوا موحدين متعاونين، إلا إذا غلب عليهم وازع الغريزة والطبيعة، فإنهم يصارعون بعضهم بعضاً؛ فالتعايش ممكن بل وضروري، لكي تتعارف البشرية –حسب منطوق الآية– وتتعاون، وتتنافس في إطار ما يخدم البشرية، فتُضمَن الحقوق والمصالح للأطراف جميعاً. وشكل التعايش المقصود هو الشكل التدافعي الذي يضمن بقاء التعدد والتنوع والاختلاف، لكن في اتجاه المنافسة والسعي الحثيث المشترك.[٤٤]

٢. الضوابط الإنسانية للتعارف، والاعتراف المتبادل:

يستحيل التعارف في ظل النفسية المتوجسة من الآخر، والناظرة إليه بعين الدونية والاحتقار، فليس يقدر على التعارف من ظن نفسه أنه الأفضل على الإطلاق، أو أنه ليس للحياة نموذج أسلم ولا أكمل من نموذجه وطريقته هو، فيمتنع السلوك الإيجابي المتجاوب، وتتحوّل دواعي الاجتماع الكوني الإنساني، إلى أسباب افتراق وتباعد، وهو الأمر الذي يدعو إلى ضرورة توفر ضوابط ولوازم تجمّع والتقاء، تيسّر للمتعارفين تثاقفاً إنسانياً، "والنظر في النتاجات والإبداعات الإنسانية لأتباع الديانات الأخرى؛ إذ سيرى علماء الدين، أن الشرائع الأخرى يوجد فيمن يعتنقونها رجال أفذاذ، لا يمكن للمرء أن ينكر عظمتهم الأخلاقية والمعنوية؛ وهذا بنفسه يدل على أن الشخص الذي يتمتع بهذه الفضائل، وهو مؤمن بدين آخر، لا محالة يكون قد استمد بعض هذه الفضائل من التعاليم الموجودة في الدين الذي ينتمي إليه، فأنا المسلم ليس بمقدوري إنكار أن الديانة الهندوسية أنتجت شخصيات لامعة مثل (غاندي) و (طاغور الشاعر)، وصارت لهم فيما بعد شهرة عالمية،...لا مناص لي من الإذعان بأن الدين الذي ربى شخصيات

[٤٤] دواق، الحاج بن أحمنه. "في التنوع سنة كونية، وفي التعايش ضرورة تاريخية"، **مجلة متابعات**، باتنة– الجزائر: شركة باتنيت للطباعة والنشر، س١، ع٢، ٢٠٠٥م، ص٥.

متوهجة كهؤلاء، لا بدَّ وأن ينطوي على تعاليم سامية، تؤهله لإنتاج نماذج إنسانية من هذا القبيل."[٤٥]

إنّ أبلغ توطئة للتثاقف المتأسِس على التعارف، التسليمُ بأن الشرائع الأخرى المكونة للثقافات المختلفة، فيها كثير من الفضائل التي تلد عظاماً، يدافعون عن الإنسانية، وعنها يردون أشكال الأنظمة الدولية الجائرة، بغض الطرف عن اللون، والعرق، والانتماء؛ فروح التعارف متلافية للحدود متجاوزة لها. كيف لا، "وجميع الأديان والمذاهب استطاعت على مدى قرون أن تبعث البهجة والسرور، والأمل والطمأنينة، في نفوس الكثيرين، وأن تخفف من حدة الآلام والمشاق الروحية والمادية إلى حد كبير. وهذا يدل على أن تلك الأديان لها نصيب من الحقانية، بمقدار ما استطاعت أن تؤثر إيجابياً في المجتمعات."[٤٦] وما أود استدراكه، أن بعض المذاهب البشرية قد أورثت المعاناة، ولكن الفضل موجود، ويسع المقدرة على بناء أرض التثاقف والاجتماع، كما يوجد مقابله من يعمل على دفن كل اعتبارات التلاقي والتفاهم.

التأسيس السابق يكرس استعدادات تنفي التعصب والتشرنق على الذات، ولا يولد "...التحيز ضد أوروبا والغرب، ولسنا في إطار تكريس الصراعات الحضارية، فعالمية الإسلام (وخروجنا) من قبلُ بالرسالة إلى الناس كافة، ودمجنا بين الحضارات والثقافات والأعراق، ...والتزامنا بعقيدة التوحيد و(التعارف) بين الناس، وإيماننا بوجوب دخول البشرية في السلم (كافة)، كل هذا يجعلنا لا ننطلق من منطق التحيز، بل نعذر الغير إن تحيز ضدنا –فللغير– من موروثه التاريخي ونسقه الحضاري ولاهوته الديني، ما قد يدفعه لذلك."[٤٧]

الدخول في السلم من أوجب ضوابط التعارف، وأكثر آلياته إلحاحاً؛ وجودياً، لبقاء المتعارفين ابتداء، وتاريخياً للتمهيد في الدخول في دواعي التفاهم، وتبادل الرؤية للحياة،

---

[٤٥] ملكيان، مصطفى. **العقلانية والمعنوية، مقاربات في فلسفة الدين**، ترجمة: عبد الجبار الرفاعي، بيروت: دار الهادي، سلسلة فلسفة الدين والكلام الجديد، ط١، ٢٠٠٥م، ص٤٧٤.

[٤٦] المرجع السابق، ص٤٧٥.

[٤٧] العلواني، طه جابر. **نحو منهجية معرفية قرآنية**، بيروت: دار الهادي، سلسلة فلسفة الدين والكلام الجديد، ط١، ٢٠٠٤م، ص٤٨١.

بشكل يولد معقولية التعايش في سياق وجود التنوع والاختلاف رأساً، فتفزع البشرية في زمن التنابذ والخصام إلى شرعة الرُّشد والسلام، فيكون وفق الوعي السابق، "التحول الإنساني إلى الكونية، بديلاً عن الموضعية والوضعية، فتتكون لدى الإنسان نظرية وجود، مرتبطة بالله سبحانه، بوصفه خالقاً، ومصدراً للكتاب والحكمة، فتتشكل عقلية الإنسان وأخلاقياته على ضوء هذا الارتباط الإلهي، فيتعالى على نزعته الغريزية البهيمية الدنيوية العابرة، وينتمي لمنظومة إلهية من القيم، هي نقيض التعالي في الأرض والإفساد وسفك الدماء، مهما كانت المسوغات النفعية، ونزعتها العلمية غير الأخلاقية، وتمركزها حول الذات الفردية."[٤٨] وخصوصية الرؤية، لا تمثّل حائلاً دون التعارف؛ فالقيم المتضمنة هي إنسانية كونية، موجودة عند شعوب الأرض جميعاً، ويقابلها معاناتها من المسلوبية المفتعلة لأنظمة الاستبداد العالمية باسم التحضر ونقله للهمجيين، تغطيةً للرغبة في السيطرة والتعدي.

ولو خيرت الإنسانية –بعيداً عن أساليب التمويه والدعاية– بين قيم متجاوزة متجاورة، تؤمن بالإنسان كله، وأخرى تعصبّية انغلاقية، فإنها تختار الأولى، باعتبار الرشد الذي تؤول إليه الآن؛ "فالعالم اليوم كله يتجه الآن للبحث عن الخلاص الكلي ضمن حالات يتعذر فيها نشدان الخلاص القومي العنصري أو الطبقي أو اللاهوتي العصبوي الآحادي الذاتي التكوين، هذا الوضع العالمي –بوصفه عالمياً– لا يستجيب عند طرح الحلول إلا للبدائل التي بمقدورها تقديم نفسها عالمياً...[وهنا] فإننا نستجيب لنوع من العالمية الاختيارية التي تقوم على إنسانية التوجه، وليس على قهريته، كما تفعل الحضارات المادية التي تود تفصيل عالم على قياساتها الذاتية وبنهج مصالحها."[٤٩]

إذن من الضوابط التي تعمل على توليد التعارف السليم المتوازن، إزالةُ التوجس من الآخر والخوف منه، ومعرفة ذاتية الآخر في سياق الوحدوية العالمية، وتقاسم شرطيات الالتقاء والتذكير بها باستمرار، وأن مخزن البشرية قيمياً، ليس محصوراً في نطاق أرضي

[٤٨] حاج حمد، محمد أبو القاسم. **الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن**، بيروت: دار الهادي، ط١، ٢٠٠٤م، ص٣٦.

[٤٩] المرجع السابق، ص٤٤٦.

واحد، بل هو متوزع في جنبات الوجود العريضة، ثم خطاب الإنسان للإنسان، لأنه كذلك. وأساس التعارف الذي ننظر له، يعود إلى منطق "الخروج للناس، وليس الاجتياح الإمبراطوري، والتعارف بغية التفاعل الحضاري والفكري، وليس الاستحواذ على الغير ونهب ثرواتهم، والدعوة للتوحيد وليس الإكراه."[٥٠]

٣. فلسفة نبذ العنف مهاد التعارف:

تكاملت الإنسانية في مسيرتها الحضارية، إلى أن بلغ بها الحال مطاولة النجوم كما يقولون، إلا أنها –للأسف– لمّا تتجاوز بعد طريقة البدائيين في معالجة مشكلاتها، فهي لا تزال تؤمن بالعنف والقوة طريقاً لحل المشكلات، مع الذات ومع الآخرين، وكأني بالعالم غابة تحكمه شريعة القوي، وليس ثمة فسحة إنسانية مكرمة، يوجهها القانون ويحميها. وليس من حل ممهد للتعارف وموطئ له، مثل نبذ العنف، وإحلال روح التسامح محله، "وإذا استطعنا أن ننبذ العنف بقناعة؛ فسنتحرر تحرراً عظيماً، يزيل الخوف والرعب من قلوبنا، ربما نقتل ويقتل معنا آخرون، ولكن لن يقتل العدد الذي يقتل الآن بسبب استخدام العنف.

وحتى الآن لم يبحث مقدار القوة التي يمكن للإنسان أن يمتلكها إذا نبذ العنف، وكم يكون جباناً يدين نفسه ولا يظهر على حقيقته إذا بقي العنف في داخله."[٥١] فالتوجس والنظر بريبة إلى المخالفين، يبقي روح الضغينة كامنة ومتربصة، فيُعاق التعارف ويمنع؛ لأن كل طرف ينتظر الفرصة ليجهز على الآخرين، متناسين الأيام الخوالي، وما أظهرته من مصائر الإمبراطوريات العازمة على استخدام قوة العضلات، كيف انتهت، فمن رفع سيف البغي فبه يقتل. والبشرية مدعوة إلى التمهيد لنظام عالمي كوني، وعالمية إنسانية تتأسس على المعنى الأخلاقي، وقوة المعنى، وليس على ترسانة الرعب المهدد للبشرية ومستقبلها؛ فشرعة الحياة ظلم وتَعدٍّ، أو استقرار وتكامل، وفي الأرض ما يسع الجميع، لو ما ضيق الأنفس وتبرمها وأنانيتها.

---

[٥٠] حاج حمد، محمد أبو القاسم. "**رباعية العولمة عبر التاريخ**"، مقال مخطوط، ص٣.

[٥١] سعيد، جودت. **مفهوم التغيير**، سوريا: دار الفكر، ط١، ١٩٩٥م، ص١٥٣.

و"التفسير النظري للحضارة في العصر الجديد، هو أن الوسائل والأساليب القمعية تعود إلى البشر الحفاة العراة، ولا ينبغي للإنسان المتحضر أو المكتسي اللجوء إلى الوسائل القسرية القمعية المنسوخة واللا مُجدِية، ولكن إذا خرقت هذه النظرية الحضارية، أو ثبت بطلانها أو لا جدواها، فمن الممكن اللجوء حينها إلى عُرف آخر، نحن الآن نتحدث عن عُرف بات مقبولاً على الصعيد الإنساني."[٥٢] ويزيد الأمر رسوخاً إذا أخذنا استعداد الإنسانية اليوم لتجاوز مراحل الهمجية في التواصل، وقد لاقت منها الويلات. وخذ مثلاً ما ينعت بالحروب العالمية في القرن العشرين، وما خلفته ليس من القتلى وحسب، بل في غور الضمير الإنساني، الذي أضحى يتوجس من النوع الإنساني ذاته، في حين لو عملت مؤسسات المعرفة، ومؤسسات الترويج لها، على التنظير لسماجة العنف من حيث ما هو، فستتمهد أرض صلبة، يقف عليها الضمير الكوني، بطمأنينة وثقة في قابل الأيام.

وعادة ما يشار إلى الوعي السالف النابذ للعنف، على أنه مراوغة تكتيكية، وليس من قبيل التأسيس المبدئي، الذي ينطلق من مرجعية نظرية واضحة، تهدف إلى آفاق رحبة وعريضة، مركّزة في نفوس البشر حالات التوازن الرافض للعنف والمنكرة له، فما كان العنف في شيء إلا شانه، وما نزع عن شيء إلا زانه، خاصة إذا عرفنا أن المعنى المساق في التنظير النبوي يتضمن خلافه، أي ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه. ويتجلى ذلك في نطاق الأخلاق الكلية، وهي "في رؤية الإسلام ليست قضايا مرحلية تكتيكية، بل هي منهجية ثابتة في شخصية الإنسان المسلم، والتزام الأخلاق مبدأ في جميع المجالات، في التعامل مع الأسرة والمجتمع، وعلى صعيد العلاقات الدولية، وليس في مجال العلاقات الشخصية فقط."[٥٣] وما يدفع بأوضاع الحياة إلى أشكال أكثر استقراراً، هي هذه الروح التثاقفية المبدئية، التي لا ترهن التواصل بمصالح آنية، بقدر ما توثقه بقيم كُلِّية عامة، تشد تقلبات الأوضاع وأحوالها إلى معنى راسخ وثابت، يحمي البشر لأنهم كذلك، وليس لاعتبارات أخرى متقلبة.

---

[٥٢] سروش، عبد الكريم. "الدين والتسامح والمدنية"، **مجلة قضايا إسلامية معاصرة**، بيروت، س٨، ع٢٧، ٢٠٠٤م، ص٥٣.

[٥٣] الصفار، حسن موسى. **الاستقرار السياسي والاجتماعي**، بيروت: الدار العربية للعلوم،، ط١، ٢٠٠٥م، ص٩١.

والعنف "ليس الضرب باليد، والتراشق بالصواريخ، أو تفجير السلاح النووي فقط، فهذا أقصى جرعات العنف، ولكنه طيف متحرك من الإمكانيات والسلوك، يتأرجح من الفكرة إلى الفعل، فالحروب تبدأ في الرؤوس قبل سل السيوف، والكراهية تبرمج تعبير الوجه الحاقد، واللفظة السامة، ومد اليد واللسان بالسوء."[٥٤] فرُبَّ فكرٍ يورث أحوالاً من العداوات الكونية بين العالمين، ولنستذكر ما فعلته الرؤية النازية والفاشية بأوروبا المعاصرة؛ إذ قتل أكثر من ستين مليوناً من البشر؛ لأن وعي الإلغاء والإقصاء، قد استبد بنفسيات الحكام في تلك البلاد، فعبّروا عن روح الصراع الكامنة فيهم. وهنا يتكون العنف من حيث طبيعته، من: "ثلاث تجليات؛ كراهية، وتهميش، وحذف للآخر، كفكرة كمونية شيطانية –أنا خير منه– تتطور إلى التلفظ باللسان، بعدم اعتماد الخطاب الإنساني، من الهمز واللمز والاحتقار والسخرية وتحويرات الكلمات والتنابز بالألقاب، وتنتهي باليد والسلاح، لإيذاء الآخر وإلغائه، لتصل في تصعيدها الأعلى، وجرعتها القصوى، إلى التصفية الجسدية، وإلغاء وجوده المادي والمعنوي."[٥٥]

خاتمة:

إن العلاقات الثقافية، أو ما ينعت بالمثاقفة أو التثاقف، ينبغي أن يتجاوز روح الاستلاب الاحتوائية، القائمة على العنف وإلغاء الآخر بخصوصياته، ليبلغ أفق الوحدة الإنسانية، وأصلها الوجودي الواحد، ومصيرها المشترك. فليس شرطاً أن تكون أنا، لكن ينبغي أن تفهمني، وأَعِيكَ في إطار التنوع الوجودي الكوني، المبني على تفاضل الأداء، وليس على القوة الغاشمة.

وكلما ترنحت البشرية في تجاربها التاريخية بين ممارسات متعالية مبتعدة عن الهداية والتسديد القيمي المتجاوز، فإنها لا محالة ستظل غارقة في وحل التجربة المؤلمة المتكررة. فالأزمة الجوهرية لا تتمثل في النظريات المفسرة للصلات الحضارية والثقافية أو المكونة لها، بمقدار ما تنغرز في مثويات المرجعيات المؤسِسَة للوعي والهادية له، في خضم التفسيرات

[٥٤] جلبي، خالص. **سيكولوجية العنف، واستراتيجية الحل السلمي**، سوريا: دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م، ص١٣٦.
[٥٥] المرجع السابق، ص١٣٦.

المختلفة. لذا نحن في إطار المدرسة التوحيدية المتغذية من المعين الإلهي، بحاجة إلى استقراء المدونات المقدسة للإنسانية جمعاء، وحثّها وفق برامج تثقيفية وتربوية، على ابتعاث الإنسان الرباني المهتدي بقيم السماحة والأخلاق الإنسانية، المشدودة إلى المعنى القيمي الأخلاقي والجمالي، الحافظ لكرامة الإنسان.

وإذا تتبعنا مسار الثقافات الروحية الكبرى في تاريخ الإنسان الطويل، وجدناها تلحّ على احترام كرامة الإنسان، وعلى فرادة نوعه، وكونه ظاهرة وجودية مستقلة، يستحيل إيجاد مثيلها في الكون كله، لذا فهي معنية بأن تعالج مشكلاتها بمنطق التواصي والتواصل، وتردم هوة التباعد والمفارقة.

إن العرف العقلائي وما أجمع عليه كل الواعين من الناس، يجعل البشر مطالبين أكثر من ذي قبل بلملمة شتاتهم، من المدونات والموروثات الروحية، وأن يحفزوا ذلك في إطار مقررات قانونية ملزِمة، تربي البشر على الحب والكرامة والاحترام، باعتبار الأصل الوجودي الواحد، وكذا المآل المشترك، لكن ليس بروح التوجس والاستعداد للتوثب، ولكن بوصفه جوهراً متجذراً محيِياً للطبيعة والنزعة الخيرية في الإنسانية ككل. وليس من قبيل الشوفينية والذاتية المقيتة إذا قلنا إن المهمة التاريخية هذه تقع على عاتق الأمة الوسط، ومن يدور في فلكها في تقويمها للعالم، ويشاركها رؤيتها الكونية؛ لامتلاكها قيم الانفتاح والمسؤولية الوجودية، باعتبار المصدرية المشكِّلة لها، وكذا بالنظر إلى تجربتها التاريخية بوصفها أمة، انتقلت إلى العالم لتفهمه وتتواصل معه، وأيضاً لكونها رافضة للمركزية الجذبية، ومؤمنة بالخروج الإشعاعي، ومكلفة بتحمل تبعات البشرية؛ لأن الخيرية والريادية القيمية، تقتضي المسؤولية والشهادة التاريخية والعقدية، وإلا لانتفت المقاصد الوجودية من تكليفها للأمم الإلهية؛ بالخلافة، والعبادة، والعمارة، والخيرية الريادية، والشهادة.وكل يعمل على شاكلته.